مقدمة

بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١م انتشرت مقولة: «إن العالم قد تغير». هذا على الرغم من أننا كنا قد قرأنا من قبل فى الكتاب المقدس «لا جديد تحت الشمس». لكن الواقع، أننا نشاهد الآن بالفعل تغيرات عميقة وجذرية فى المجالات السياسية والثقافية والاقتصادية. ولعلنا نستطيع أن نشاهد عناصر هذا التغيير وتجلياته على أبعاد مختلفة، ومن زوايا متعددة. والصورة الجديدة عن الإسلام والمسلمين هى إحدى تجليات هذا التغيير. فقد غدا الإسلام يُعْرَف بأنه مساو للإرهاب، وأصبح المسلمون يُقَدَّمُون على أنهم إرهابيون. حتى إن البعض حاول أن يَصوغ نظريات بعينها لتكريس هذا الادعاء، وأن يبحث فى الوثائق التاريخية ويدرسها لإثباته، وقد قاموا بذلك بالفعل.

فبعض الكتَّاب الذين لا ينتظر منهم أبدًا بوصفهم باحثين ودارسين أن يصدروا حكمًا على الإسلام والمسلمين. أعلنوا وجهة نظرهم، وحاولوا بتصريحات عاطفية، ومؤثرة بالطبع، أن يقدموا الإسلام والقرآن والمسلمين والدين الإسلامى معادلاً ومساويًا للقتل والإبادة. تمامًا مثل المقالة التى كتَبَتْها بعد فترة طويلة من الصمت الكاتبة الإيطالية «أوريانا فالاتشى» تحت عنوان «The Rage and the Pride» (الغضب والغرور). وقد قامت هذه الكاتبة بنشر مقالتها هذه مع تكملة لها فى كتاب تحت هذا العنوان السابق نفسه[1].

وثمة مسألة جديرة بالتأمل والاعتبار صادفتُها عندما كنت أبحث عن كتاب على موقع «أمازون»، حيث رأيت أن هذا الموقع يقترح على من يبحث عن كتاب ليشتريه أن يطلب كتاب «فالاتشى» هذا مع كتاب «أزمة الإسلام» الذى كتبه «برنارد لويس»، وأن المشترى فى هذه الحالة سوف يحظى بالتخفيض اللازم. وبرغم الدعاية المكثفة التى رجحت هذين الكتابين، والضجة الإعلامية التى صاحبتهما، فإن أيًا منهما لم تتم

ترجمته إلى اللغة الفارسية. ومن هذا المنطلق فإنى أحاول فى كتابى هذا أن أتطرق إلى بحث ودراسة الأسس النظرية لما كتبه برنارد لويس، وكذلك إلى دراسة منهج «فالاتشى» والآخرين وأسلوبهم فى التحليل والبحث والدراسة، وأعنى بالآخرين أولئك الذين دارت كتاباتهم ودراساتهم وأبحاثهم حول الإسلام والمسلمين، وأصدروا أحكامهم ووضعوا نظرياتهم بهذا الشأن.

وفى رأيى أن مثل هذا النوع من الدراسة والبحث تستوجبه فى عصرنا هذا ـ الذى يعدّ عصرًا غريبًا حقًا ـ ضرورة قصوى. فالسيدة «فالاتشى» فى حديثها عن هذا العصر الغريب، استخدمت تعبير «آخر الزمان! [فى سفر الرؤيا]» (Apocalypse)[٢] وقبلها بالتأكيد كان «فوكوياما» قد تحدث عن «نهاية التاريخ» وسوف أشير إلى حديثه هذا فى حينه.

والفرصة متاحة أمامنا الآن كى نتعرف على الأسس الموجهة والمعضِّدة لوجهة نظر الآخرين وآرائهم ومناهجهم فى الاستدلال، كما أن الفرصة متاحة أيضًا كى نستقصى نواقصنا ونقاط عجزنا بأسلوب عقلانى منصف، ونتعرف على حدود ومفاهيم الحرب المقدسة والقتل غير المقدس بوصفه مصطلحًا استخدمه «برنارد لويس» فى العنوان الأصلى لكتابه[٣] (أزمة الإسلام ـ The Crisis of Islam).

وهذه الدراسة يمكن أن تحظى بالاهتمام. فقد شاهدتُ أخيرًا بعض المفكرين أو الكتاب الذين يتمتعون بقدر مناسب من المعرفة الدينية يتحدثون أيضًا عن الغرب، وبالتحديد عن أمريكا فى تشدد وعجالة، حتى إنهم عدّوا الظاهرة التى تدعى «حق التخوف» على أنها ظاهرة طبيعية، أو أنهم أعلنوا فى الأساس أن «الإسلام لا يتواءم ولا يتناسب أساسًا مع الديمقراطية» وطرحوا جانبًا مسألة البحث فى حقوق المرأة ومسألة الرق والعبودية، أو أنهم أعلنوا صراحة أيضًا «أن الدين أساسًا لا يمكن أن يجتمع مع الثقافة التنويرية».

ولدينا هنا ـ من هذا المنطلق ـ فى هذا الكتاب مسألتان جديرتان بالاهتمام:

أ ـ آراء برنارد لويس وفالاتشى وهنتنجتون وأحكامهم.

ب ـ آراء الكتّاب المسلمين، الإيرانيين أو غير الإيرانيين، وأحكامهم.

ومن البديهى أننى فيما يتعلق بآراء الكُتَّاب وأصحاب الرأى المسلمين ـ لن أتعرض لأسماء الكتّاب وشخصياتهم الحقيقية، بل سيكون اهتمامى منصبًا فى الأساس على آرائهم وأحاديثهم فقط. بالإضافة إلى ذلك ولأسباب تعلمونها جيدًا، فإن طرح الأفكار والآراء فى مجال الفكر فى إيران قد اختلط بالسياسة والمواقف والرؤى السياسية، إلى درجة أن القارئ ـ وبخاصة المهتم ـ يعرف جيدًا من أى زاوية وفى اتجاه أى تيار يتحدث الكاتب ويبدى أحكامه ويقوم بتحليلاته! ومن الضرورى أن أذكر هنا أننى أبنى ما أكتبه هذا على ألا يكون له أى لون أو توجه سياسى بقدر الإمكان ـ بمفهوم الانتماء والانحياز ـ وبالتالى عدم الانتماء والانحياز إلى أى تيار سياسى. ومن البديهى أيضًا أن ينظر القراء المحترمون بعين النقد لما يكتبه الكاتب فى هذا الكتاب حتى يكون هذا الكتاب ـ بعون الله ـ بصيصًا من النور والتنوير ومختصرًا لتوضيح وفضح الشبهات أو الشكوك التى يتم الترويج لها فى عصرنا هذا حول صورة الإسلام وتصرفات المسلمين. وسوف نكون شاكرين لأهل النقد وأصحاب الرأى إذا ما تنبهوا إلى ما شاب هذا الكتاب من أوجه نقص، وأن يتفضلوا شاكرين بإبلاغ كاتبه بما يرونه من اقتراحات لإثراء موضوعه.

***

إن كتاب «أوريانا فالاتشى» الذى نشرته على هيئة تقرير صحفى، نموذج صارخ يمكننا من خلاله أن ندرك ما يلى:

١ ـ آراء «فالاتشى» ونظرتها هى ومن يفكرون تفكيرها نفسه ويحسون أحاسيسها تجاه الإسلام كدين.

٢ ـ كيف ينظر هؤلاء إلى القرآن الكريم بوصفه نصًا مقدّسا للدين الإسلامى؟

٣ ـ وما نظرتهم وأحكامهم بشأن الحكومات والدول والجماعات الإسلامية التى تقوم بعمليات مسلحة، أو تقدم على القيام بتفجيرات، ومنها ما حدث فى ١١ من سبتمبر؟

ومدار الحديث فى الكتاب الذى بين أيدينا هو فى الأساس حول آراء هؤلاء الكتاب السابقين ومن فى حكمهم، ونظرياتهم بشأن الإسلام والقرآن، وكذلك بشأن الحضارة والثقافة الإسلامية التى أنكروا وجودها أصلاً. ومن المناسب أن أشير هنا إلى النقاط التالية كى نقترب أكثر من موضوع الكتاب الذى بين أيدينا، ومن الموضوعات التى سأطرحها فى هذا البحث:

١ ـ أن السيدة «فالاتشى» قامت بنشر كتابها فى صورة تقارير صحفية ضمّنتها إشارات كثيرة ومتنوعة إلى حوارات وأحاديث صحفية أجرتها مع شخصيات عديدة مثل ياسر عرفات والدلاى لاما وغيرهما من الشخصيات الشهيرة، وضمنتها كذلك إشارات إلى رحلات قامت بها مثل رحلتها إلى ڤيتنام الجنوبية وڤيتنام الشمالية فى أثناء الحرب الڤيتنامية ضد أمريكا. وأهم من ذلك الإحالات الذهنية التى أشارت فيها إلى حياتها الخاصة، وأنها فى هذه المرحلة من العمر التى تحكم فيها على ماضيها وتُقيِّمه، وتفكر فى رصد سنوات عمرها التى انقضت، ترى أنها لم تجن من عمرها الطويل هذا شيئا سوى الأسف والمرارة والندم واليأس. وتتساءل: «من المسئول عن مثل هذا العمر الملىء بالمرارة واليأس والوحدة والأحزان؟ وماذا كان الحاصل من ورائه؟». إنها تزمجر وتصيح: «أى شخص يستطيع أن يسترجع عمره البالغ خمسين عامًا وهو لم يجن منه سوى روح مظلومة مجروحة، وهتك لمفاخره ومنجزاته؟». وتقول فى موضع آخر: «ذات يوم وجهت هذا السؤال لضابط سابق كان عضواً فى اتحاد الشبيبة الشيوعيين، وقلت له: إن الفاشية فى رأيى ليست أيديولوچية، بل هى سلوك. وسألته: هذه الخمسون عامًا التى مضت من عمرى، من يعيدها إلىّ؟. قال مجيبًا: عذراً سيدتى فلتسامحينا! عذراً. ثم رسم ابتسامة على شفتيه وقال: «لماذا لا ترفعين دعوى ضدنا؟!».

من هذا التعبير الذى صورته «فالاتشى» يمكننا أن نستنتج أن: «النمر لا يغير بقع جلده»[٤].

هذه الاقتباسات نقلتها عنها، رغبة منى فى توضيح الجو والمناخ الذى كتبتْ فيه «فالاتشى» كتابها.

٢ ـ بمثل هذا الحصاد، وبمثل حكمها فى حق نفسها، ومع هروبها من إيطاليا بشكل تستخدم له تعبير «المنفية» فى حق نفسها[٥]، وبعد فترة طويلة من الصمت، مع أمراض تذيبها كالشمع لتسقط من الداخل والخارج، أصبحت أمريكا محط آمالها الوحيد، ومكان ثقتها المطلقة! وهذا أيضًا بدوره يعد من المفارقات العجيبة فى التاريخ. فالكاتبة التى عرفتها شعوب العالم المتحرر بتقاريرها الصحفية عن حرب ڤيتنام، وبكتابها

الشهير «الحياة والحرب ولا شيء آخر» ذلك الكتاب الذى تحول إلى وثيقة خالدة لمقاومة الشعب الڤيتنامى فى مواجهة سلطة أمريكا وقسوتها وظلمها، ذلك الكتاب الذى تمت مصادرته من محلات بيع الكتب ومن فوق رفوف المكتبات فى أثناء زيارة نيكسون لإيران كنوع من الترحيب به والإشادة بأمريكا، حيث وجدنا «فالاتشى» فى حديث لها مع الشاه تطرح هذا الموضوع وتسأل الشاه فى أسًى: «هل حقًا كان كتابى على هذا القدر من الخطورة؟». الكاتبة التى صورت بكتابتها لرواية «رجل» تضامنَها وتعاطفَها مع «ألكس» (ألكساندر باناجوليس) الفدائى والمناضل اليونانى المنقطع النظير، تأتى فى هذه المرحلة من العمر، لتكتب: إن أمريكا بالنسبة لى بمثابة الزوج! الحبيب المعشوق! الزوج والمعشوق الذى ستظل فلاتشى وفيَّةً له إلى الأبد برغم عيوبه ونواقصه[٦].

٣ ـ استنادًا إلى ما أشرت إليه فى الفقرتين ١، ٢، على القارئ العزيز أن يتنبه الآن إلى الحكم الذى أصدرته «فالاتشى» بشأن الإسلام والقرآن والحضارة والثقافة الإسلامية، وأن يضع فى حسبانه كيف يمكن استغلال مدى تأثير اسم فالاتشى وشهرتها وجاذبية كتاباتها فى هذا الزمان الذى تقول عنه هى إنه آخر الزمان. كيف تقول:

أ ـ «انظر بدقة وتفحص! انظر ودقق! لقد استطعت بمفردى أن أدرك أن كتاب الرسول [تقصد رسول الإسلام ﷺ] ما هو إلا مجموعة من الأقوال اللامعقولة، وحتى هذه الأقوال أيضًا تم اقتباسها وانتحالها من الكتاب المقدس ومن الفلاسفة والمفكرين اليونانيين».

ب ـ «لقد وجدت «ابن رشد» فقط هو الذى يستحق أن تكون له قيمة وجدارة فى البحث والدراسة لا تقبل المناقشة؛ مثل تفسيراته على ما كتبه أرسطو...».

جـ ـ «كذلك عمر الخيام بما كتبه من بعض أبيات الشعر الجديد...».

د ـ «يضاف إلى ذلك بعض المساجد الجميلة! وفيما عدا هذا الذى ذكرته ليس للمسلمين أى إنجازات فى مجال الفن وبستان الفكر»[٧]. وهذا الحكم بشأن بعض المساجد الجميلة عادت ونقضته فى آخر الكتاب، إلى درجة أنها كتبت: «إن كنائسنا أجمل بكثير من مساجدهم!»[٨].

تلك هى النقاط التى يمكن استخلاصها من آراء «فالاتشى» وأحكامها بشأن الإسلام وحضارة المسلمين وثقافتهم.

وها هو ذا دليل واضح على ما حققته الدعايات المكثفة الواسعة لكتاب السيدة «فالاتشى»: تلك الدعايات التى أشرت إليها من قبل. وقد تمثل هذا الدليل فى قيام إحدى الصحف الإيرانية فى عددها ١٢٠ بالترويج والدعاية لهذه السيدة ولكتابها الجديد دون أى معلومات عما يحتويه هذا الكتاب. ومن المحتم أن الصحيفة قامت بنقل الموضوع من موقع «فالاتشى» الإلكترونى، لكن الواضح أن المترجم المحترم الذى قام بترجمة الموضوع ومجلس تحرير الصحيفة لم يكن لديهم أدنى اهتمام بالاطلاع على محتويات الكتاب؛ فقد كتبت الصحيفة تحت عنوان «امرأة يجب أن تناضل بشكل أشد» العبارة التالية:

«مع وقوع أحداث الحادى عشر من سبتمبر، تصاعد اسم فالاتشى من جديد إلى صدر عناوين الصحف والرأى العام العالمى. فكتابها الجديد المعنون بـ «الغضب والغرور» الذى قامت بنشره تأثرًا بأحداث الحادى عشر من سبتمبر، وما ترتب عليها من نتائج، أدى إلى أن تتعرض هذه المرأة بسبب كتاباتها الصارخة إلى متاعب جمة ووصل الأمر إلى درجة قيام الشرطة بفرض حراسة حول شقتها فى نيويورك لحمايتها ومنع أى محاولة لقتلها. فـ «فالاتشى» التى بلغت من العمر ثلاثة وسبعين عامًا، والتى تقيم الآن فى شقتها الواقعة فى جزيرة منهاتن حاولت فى آخر كتاب قامت بنشره أن تثبت للجميع أنها كانت طوال هذه السنوات التى انقضت من عمرها تسعى فقط وراء الحقيقة وسط الحروب والنيران والدماء بوصفها مراسلة صحفية».

إن تعبير «الحقيقة» الذى أطْلقَ على كتاب «فالاتشى» بوصفه الحقيقة التى كانت تسعى وراءها الكاتبة، لهو من المَظالم الكثيرة التى تعرضت لها الحقيقة وما زالت؛ تمامًا مثلما تعرضت له «الحرية» من مظالم وتشويه باسم الحرية حسب تعبير «ستيوارت ميل»، فإذا كان الإسلام حقيقة واقعة، والحضارة والثقافة الإسلامية كذلك حقيقة واقعة، وما تعرض له المسلمون طوال القرن الماضى من سحق حقيقة واقعة، كذلك المثال الصارخ الذى يثبتها والدليل الأكيد الذى يدل عليها هوَ ما يتعرض له الشعب الفلسطينى من سحق وإبادة، فإننا نجد «أوريانا فالاتشى» فى كتابها هذا قد أنكرت كل هذه الحقائق واستهانت بها، وقللت من شأنها.

من المؤكد أن رأى «فالاتشى» وأحكامها بشأن الإسلام والقرآن والحضارة والثقافة الإسلامية ليس له أدنى تقدير، من حيث إن هذه الأحكام والآراء إنما بنتها هذه السيدة على علمها ومعرفتها وتخصصها؛ لكن المهم هنا هو أن هذه الأحكام والآراء التى لا تحظى بأدنى تقدير، يتم ترويجها والدعاية لها بشكل مكثف، وأن كثيرين ممن ليس لديهم الأسس اللازمة والقاعدة العلمية السليمة يطلقون أحكامهم على الإسلام والمسلمين من هذا المنطلق نفسه. وإلا فإن باحثا ومحققًا مثل «برنارد لويس» الذى يجوب بمصباحه ومجهره فى مختلف المتون والمصادر الإسلامية كى يختار منها بعناية ما يتوافق مع آرائه ونظرياته، لا يقول مثل هذا الكلام المطلق على علاَّته، بل على العكس من ذلك نجده فى مواضع الضرورة يبادر بالإشادة بمنجزات حضارة المسلمين وثقافتهم، وما ذلك إلا بهدف إضفاء طابع الإنصاف والمنطقية على كلامه وآرائه فى موضع آخر. ففى كتابه «أزمة الإسلام» كتب حول الحضارة الإسلامية يقول:

«طوال القرون التى عرفت فى تاريخ أوروبا باسم القرون الوسطى، كانت الحضارة المرتبطة بالإسلام، دون أدنى بحث أو تقص، هى أكثر الحضارات تقدمًا. فالحضارة الإسلامية من الممكن أن تتساوى فى تقدمها مع الحضارة الهندية أو الحضارة الصينية، بل إنها قد سبقتهما وامتازت عليهما فى كثير من المجالات. فهاتان الحضارتان ـ الهندية والصينية ـ قد ارتبطت كل منهما بمنطقة محددة أو شعب معين، وكان نفوذهما وانتشارهما فى سائر بقاع العالم محدودًا بالنسبة لنفوذ الحضارة الإسلامية وانتشارها؛ فالحضارة الإسلامية لها من ناحية انتشار أفقى واسع وعالمى، ومن ناحية أخرى لها هدف واضح وصريح»[٩].

وكما هو واضح، فإن التفاوت والاختلاف فى الرؤية والأحكام بين هذين الكتابين ونعنى بهما كتاب «فالاتشى» والكتاب الذى أوصى موقع «أمازون» بشرائه وقراءته معه، وشجع القراء على شرائهما وقراءتهما معًا، ليثبت أهمية الموضوعات التى ندرسها فى كتابنا هذا، وكذلك النتائج التى سنخرج بها من هذه الدراسة. فقد تناولنا فى هذا الكتاب موضوعات مهمة مثل: الإسلام والغرب، الإسلام والمسيحية، الإسلام وعقيدة اليهود، الإسلام والأصولية. وموضوع الأصولية أساسًا سواء فى صبغتها الإسلامية أو فى التيارات والمذاهب المسيحية واليهودية، وفى النهاية الإجابة

عن السؤال المطروح؛ وهو: أين نقف نحن المسلمين الآن؟ وما المعرفة التى لدينا؟ وما حكمنا تجاه أنفسنا وتجاه الآخرين؟

لقد أصدر كل من «فالاتشى» و«برنارد لويس» وغيرهما آراءهم ونظرياتهم وأحكامهم تجاه الإسلام والمسلمين والحضارة الإسلامية والتيارات الفكرية الإسلامية، فكيف يكون حكمنا نحن عليهم؟ هذا الكتاب الذى بين أيدينا يدور حول هذا المحور؛ وهو معرفتنا بأنفسنا وبالآخرين، وكذلك حول طرح أسئلة ربما يبدو بعضها ساذجًا وأحيانًا عاميًا أو مبتذلاً، هذا على الرغم من أن النظرة الأولية للموضوع يمكن أن توضح أننا نحن الإيرانيين بصفة خاصة أو المسلمين بصفة عامة لا نتحرى الدقة اللازمة والضرورية فى العمل والفكر. وهذه الإشكالية الأخيرة طرحها أحد الباحثين الممتازين فى أثناء تسلّمه إحدى الجوائز فى معهد التقنية؛ فالسيد «فَرُّخ سعيدى» الذى يعد ممن تفخر بهم علوم الطب فى بلادنا أشار عند تسلمه الجائزة إلى أن «العمل بشكل سطحى أو رمزى يعد من صفاتنا نحن الإيرانيين!». ومثَّل ذلك بالنقوش الحجرية فى تخت جمشيد، ففى موضع منها قام الفنان بنحت يدى الجندى إحداهما فى مكان الأخرى. هذا الأسلوب فى العمل ليس غريبًا أيضًا فى مجال الفكر والبحث العلمى. من هذا المنطلق فإنى أحاول بقدر الإمكان فى هذا الكتاب ألا أبتعد بنظرى عن النقاط الدقيقة الصغيرة المهملة فى الظاهر، حتى نستطيع فى النهاية أن نتعرف على تلك الأسباب والدوافع التى دفعت الآخرين لأن ينظروا إلينا بمثل هذه النظرة، وأن يصدروا بشأننا مثل هذه الأحكام والنظريات.

ولكى نعلم إلى أى مدى يتحرى الآخرون الدقة فى دراساتهم وأبحاثهم **وتحليلاتهم** للمتون والنصوص، أو فى نقدهم للآراء والروايات؛ فإنى أشير هنا إلى مجرد **نموذج**. فقد كتب برنارد لويس فى كتابه «أزمة الإسلام»: «فى الثامن من أكتوبر **عام** ٢٠٠٢م قال رئيس وزراء فرنسا «چان بير رافارين» فى خطاب له أمام البرلمان **الفرنسى: كيف** استطاع صلاح الدين الأيوبى أن يهزم الصليبيين فى الجليل ويحرر القدس؟»[١٠].

تلقف «برنارد لويس» كلمة «يحرر» وسلط عليها الضوء؛ إذ كيف **تأتّى لرئيس** وزراء فرنسا أن يستخدم مثل هذه الكلمة فى هذا الموضع؟ ولماذا لم يستخدم **كلمة** «يحتل» بدلاً منها؟ ومن المؤكد أننا إذا أردنا أن نحكم على آراء «برنارد لويس» ونظرياته

وأحكامه بمثل هذه الدقة الميكروسكوبية التى ينتهجها فى أبحاثه، فسوف نجد أنفسنا أمام نموذج جدير بالاهتمام وهو ما أورده فى كتابه «What Went Wrong» من توضيحات حول حقوق المرأة. فقد كتب يقول: «ليس فى إيران من يفكر فى حقوق المرأة لا فى الحاضر ولا فى الماضى إلا النساء أنفسهن»[١١]. ولأن حقوق المرأة وما يتعلق بها من مسائل وقضايا من الموضوعات التى تناولها بالتفصيل «برنارد لويس» وكذلك السيدة «فالاتشى»، فسوف نتناول هذا الموضوع بشكل أكثر تفصيلاً فيما بعد. أما الموضوع الذى يعنينا هنا فهو إشارة برنارد لويس إلى الحركة «أو الفتنة البابية» فى إيران ودور «قُرّة العين الطاهرة»[*] فى هذه الحركة. فهو يتحدث عن «قُرّة العين» على أنها شهيدة، ويزعم أنها قتلت تعذيبًا! وكما نعلم، فإن أهم إنجازات قرة العين ـ وهو مايتطابق تمامًا مع أسس تفكير «برنارد لويس» وأحكامه الاستباقية ـ قد تمثل فى «أن يتم إلغاء كل قانون مقدس فى النهضة الوشيكة الحدوث»[١٢]. ولهذا السبب ظهرت على الملأ وسط دهشة البابيين دون حجاب وبوجه مشكوف وشَعر حاسر. وحدث أن الحكومة القاجارية حرصت على أن تقضى قرة العين بقية حياتها فى عزلة، بعيدة عن مجريات الأحداث، وأن تنفى اعتناقها للبابية فقط أمام سؤال وُجِّه إليها حول غايتها وعقيدتها التى تؤمن بها لكى لا تُحاكم على أنها مرتدّة. والمسألة التى تعنينا هنا هى استخدام «برنارد لويس» لكلمة «شهيدة» وكأنه درس الواقعة التاريخية وبحثها ومحّصها من وجهة نظر البابيين ومعتقداتهم.

إن ما يعنينا فى تحليلات «برنارد لويس» وأحكامه ونظرياته بشأن الإسلام والمسلمين ودراساته حول الأحداث الجارية، هو خلطه للأوراق البحثية المختلفة بعضها ببعض وكذلك استنتاجه لأسس نظرية من الأحداث والوقائع التاريخية. فمن بين الأساليب

(*) قرة العين الطاهرة: اسمها «زرين تاج» ابنة أحد فقهاء الشيعة الاثنى عشرية فى «قزوين»: الشيخ صالح القزوينى؛ كانت شاعرة ثائرة خطيبة، حافظة للقرآن الكريم، ولكنها مالت إلى محمد على الباب ودعت بدعوته، ونادت بأن أحكام الشريعة المحمدية قد نُسخت بظهوره، وكفّرت كلّ من لا يجيب دعوتها حتى أباها وزوجها وعمّها وجميع العلماء والفقهاء، فتربص أتباعها بعمها فقتلوه، وقبض عليها وقتلت فى سنة ١٨٥٢م.

راجع: محمد فاضل: الحجاب فى صدر البهاء والباب، طبع مصر ١٩١٦م، ص ١٩١ ـ ١٩٦، محمد السعيد جمال الدين، رسالة الخلود (جاويد نامه) للشاعر محمد إقبال، طبع مصر ١٩٧٤م، ص ٢٠٨ وما بعدها.

التى انتهجها فى كتاباته ودراساته، القيام بوضع عدد من الأحداث والوقائع التاريخية بعضها إلى جانب بعض بشكل انتقائى، وتحميل أحكامه المسبقة عليها، والخروج بنتيجة فقهية أو فكرية من واقعة تاريخية، وتعميم تصرفات جماعة من المسلمين وسلوكهم وأفعالهم على جميع المسلمين فى العالم، وتسجيل هذا السلوك فى النهاية على الإسلام، والخلط فى موضوع واحد بين الموضوعات التاريخية والاجتماعية والسياسية من جانب، والموضوعات الفكرية والفقهية والتفسيرية من جانب آخر، للوصول فى النهاية إلى النتيجة المسبقة التى تلقى قبولاً فى نفسه. ولهذا فإنه يتعين علينا أن نولى الاهتمام اللازم للأسس والمبانى التى يبنى عليها «برنارد لويس» أبحاثه ودراساته، وكذلك للغاية والهدف اللذيْن ينشدهما من هذه الدراسات والأبحاث والنتائج التى يتوصل إليها، برغم ما نجده فى هذه الأبحاث من دقة شديدة يمكن أن تؤثر علينا للوهلة الأولى.

وربما كان من المناسب أن نذكر هنا نموذجًا آخر. فالسيدة «أوريانا فالاتشى» تطرح موضوع تحرير المرأة بشكل متكرر؛ إلا أن إحدى وثائقها حول هذا الموضوع مثير للعبرة والاعتبار إلى حد بعيد، فقد كتبت تقول:

«إن محمد عطا (وهو أحد منفذى أحداث الحادى عشر من سبتمبر) قد كتب فى وصيته: «تُمنع الكائنات النجسة، أى الحيوانات والنساء، من حضور مراسم دفنى، ولا يسمح للنساء وبخاصة الحوامل بالوجود أمام قبرى، فهن فى منتهى النجاسة»[١٣].

فهل حقًا كتب محمد عطا مثل هذا الكلام فى وصيته؟!

وإذا افترضنا جدلاً أنه كتب هذا فى وصيته، فما علاقة هذه الوصية بالإسلام والمسلمين فى أنحاء العالم؟ لقد أشار الدكتور حسن حنفى فى دراسته القيمة بعنوان: «الإسلام فى العالم المعاصر» إلى نقطة مهمة وهى: «أننا نواجه ظاهرة استشراقية تدرس الشرق بشكل اتهامى بدلاً من أن تدرسه كموضوع وروح. هذا الأسلوب فى الدراسة يستند أيضًا إلى منطق الغرب وغايته فى دراسته للشرق»[١٤]. هذه النقطة التفسيرية التى أشار إليها الدكتور حسن حنفى تفسر فى الواقع مُبْهَمات وطلاسم كثيرة تحيط بأسباب عدم التوفيق واعوجاج الفهم الذى يثبته الغرب والغربيون فى معرفتهم وفهمهم للشرق والإسلام والمسلمين.

علينا أن نغسل عيوننا كى تتضح الرؤية

هل نحن بوصفنا شرقيين ومسلمين ننظر إلى الغرب والمسيحيين كما هم على حقيقتهم، أو أننا نقبل تلك الصورة التى صبغناها بأنفسنا عن الغرب والمسيحية كحقيقة واقعة ومسلّم بها؟ وعلى الرغم من أن قصة الشاعر سعدى الشيرازى عن الرجل الذى رأى الشيطان فى أحلامه لا تسلم من المبالغة والإغراق، فإنها تحمل فى مغزاها شيئًا من الواقع والحقيقة؛ فالصورة أو التصور الذى يصدر عن مصلحة أو جهل أو تسرع ليس إلا تصورا نسبيا لا يرقى إلى مرتبة الحقيقة، فهذا الشخص الذى رأى الشيطان فى أحلامه فى صورة تتسم بالهدوء وحسن الهندام والجمال! يسأله فى تعجب: «أهذا أنت؟! لقد صوروك ووصفوك فى صورة أخرى». فيرد عليه الشيطان قائلاً: «أجل، فالقلم الذى صورنى إنما يجرى بيد عدوى!». أى أننا عندما ننظر للأمور من زاوية العداوة والكره، فإن هذه الزاوية سوف تنحرف برؤانا عن وجهتها السليمة وتجعل حكمنا فى غير موضعه سواء كان ذلك بوعى منا أو بغير وعى؛ من هذا المنطلق يمكننا أن نقبل رأى هنتنجتون عندما يقول:

«إن وحدة العالم غير الغربى والازدواجية المطروحة بين الشرق والغرب ما هى إلا أساطير اختلقها الغربيون، هذه الأساطير أصيبت بالأعراض نفسها التى ابتلى بها الاستشراق. وقد انتقد إدوارد سعيد الاستشراق بسبب طرحه للاختلاف بيننا نحن ككتلة (أوروبا والغرب أو نحن) وبين الأجانب (الشرق والمجتمعات الشرقية أوهم) وأيضًا بسبب الاعتقاد بالتفوق الذاتى للغرب على الشرق»[١٥].

ومن المؤكد أن إدوارد سعيد الذى نقل هنتنجتون كلامه من كتابه الشهير «الاستشراق» قد أوضح لنا السبب وراء هذا التحول من جانب الغربيين فى تصورهم للشرق، حيث أصبح يُصوَّر لديهم بصورة مشوهة أو غير حقيقية، حيث يقول: إن السبب فى هذه الصورة المشوهة عن الشرق يتمثل فى وجود رؤية سياسية خاصة فى التعرف على الواقع (Political Vision of Reality)»[١٦]. بمعنى أن زاوية سياسية للرؤية هى التى توجه حكمنا فى البداية والنهاية وتحدد لنا كيف نرى وكيف نصوغ آراءنا وأحكامنا، هذه الرؤية السياسية المسبقة يمكن أن يطلق عليها إلى حد ما مصطلح الحكم

المسبق. فقد قيل: إن الإنسان النائم يمكن إيقاظه، أما ذلك الذى ألقى بنفسه فى نوم عميق فلا يمكن إيقاظه على الإطلاق! وأنا أطرح هنا عدة نماذج وأمثلة جديرة بالاهتمام عن موضوع زاوية الرؤية السياسية المسبقة أو الأحكام المسبقة.

ولكى لا تكون دراستنا هذه محكومة بحكم مسبق، وحتى لا نكون مثل ذلك الحائك الذى سقط فى الكوز ـ كما يقول المثل الإيرانى الشائع ـ فإنى سوف أحاول أن أناقش مثل هذه النماذج والأمثلة من كلا الجانبين، أى جانب الشرقيين وأيضًا من جانب الغربيين.

١ ـ قام چون باكن (Jone Bachan) الذى عمل عميدًا فى المخابرات البريطانية فى بداية القرن الماضى بتأليف رواية طويلة سنة ١٩١٦م تحت اسم المعطف الأخضر أو العباءة الخضراء (Green Mantle). فى هذه الرواية يتصور مؤلفها قيام ثورة إسلامية:

«الإسلام عقيدة محاربة، تمجد الحرب، وما زال الملاّ أو الشيخ يقف فوق منبر الوعظ وهو يحمل فى إحدى يديه المصحف وفى اليد الأخرى سيفًا مشهرًا، وكأنه عهد مقدس يدفع الفلاحين والقرويين فى أقصى نقاط العالم لأن يضحوا بأرواحهم فى سبيل الجنة، فما الذى ننتظره بعد هذا يا صديقى؟ فسرعان ما سوف تتكشف لنا الأمور هناك عن جحيم متأجج، فقد تلقيت تقارير من عملائى المنتشرين فى كل مكان، من الباعة الجائلين فى جنوبى روسيا، ومن باعة وتجار الجياد فى أفغانستان، ومن التجار التركمان، ومن الزوار والحجاج السائرين إلى مكة، ونقاط الحراسة فى الشمال الإفريقى، والمغول الذين يرتدون ملابس من جلد الخراف، والمتصوفة الهنود، والسماسرة اليونانيين فى الخليج، وكذلك من القناصلة الذين يستخدمون الشفرة فى تقاريرهم، وكل هؤلاء جميعهم يحكون عن شىء واحد وهو أن: الشرق فى انتظار الوحى!»(١٧).

٢ ـ أما أرنولد توينبى فقد عبر عن قلقه بأسلوب آخر، حيث قال:

«إن الوحدة الإسلامية الجامعة (Pan Islamism) نائمة، ومع هذا علينا أن نضع فى حسباننا أن هذه الصحوة النائمة سوف تنهض من سباتها إذا ما نهضت الطبقة العاملة فى العالم ضد سلطة الغرب، وقامت بثورتها عليه وطالبت بزعامة رافضة للغرب

ومناهضة له. فصيحة هذه الثورة يمكن أن يكون لها صدى روحى لا يمكن حسابه فى استثارة الروح العسكرية والقتالية فى الإسلام ـ حتى وإن كانت هذه الروح قد مرت عليها قرون طويلة وهى فى سباتها العميق، لأن هذه الثورة يمكن أن تعكس خصائص وصفات عصر البطولات والتضحيات، وتكون صدى لذلك العصر. فالتاريخ المؤكد يحدثنا بأن الإسلام كان فى فترتين تاريخيتين بمثابة دافع ومحرك استطاع أن يدفع مجتمعًا شرقيًا ويحركه لأن ينهض ويقوم منتصرا على معتد غربى. هذا الدافع المتمثل فى الإسلام استطاع فى فترة الخلفاء الأوائل أن ينقذ سوريةً ومصر، ويخلصهما من سلطة «بيزنطة» التى استطاعت أن تفرض سيطرتها عليهما لفترة طالت إلى ألف عام تقريبًا. كذلك استطاع هذا الدافع أيضًا تحت قيادة نور الدين بن زنكى وصلاح الدين والمماليك، استطاع أن يحافظ على هذه الثغور ويحميها فى مواجهة هجوم المغول والصليبيين. وإذا ما حدث وأدت هذه الأوضاع السائدة فى العالم الآن، والظروف التى تعيشها البشرية حاليًا إلى قيام «حرب عنصرية» أو «عرقية»، فإن الإسلام يمكنه أن ينهض من جديد لأداء دوره التاريخى، فلا كان هذا اليوم! (Abist «Omen»)[١٨].

هذا اليوم الذى تمنى توينبى ألا يجىء! هو عصرنا هذا نفسه الذى نعيش فيه الآن. فقد جاء هذا اليوم دون أن تقوم بالتأكيد تلك «الحرب العنصرية أو العرقية» التى أشار إليها توينبى. فهى على الأكثر وبتعبير «برنارد لويس» و«هنتنجتون» مجرد «صراع الحضارات والثقافات»، وهو ما سوف نناقشه فى صفحات تالية.

٣ ـ هذا القلق عبر عنه «برنارد لويس» مرارًا وتكرارًا فى دراساته وأبحاثه، لكن قطعًا تحت ستار أبحاث ودراسات ذات موضوعات تاريخية وفلسفية بما لهذه الموضوعات من تعقيدات وتداخلات متشابكة. فقد استخدم «برنارد لويس» مصطلح «صدام الحضارات» حتى قبل أن يستخدمه هنتنجتون، حيث تحدث عن نهضة وحركة إسلامية تذهب أبعد بكثير عن إطار المسائل اليومية وقضايا الحكومات والسياسات، وحدودها السطحية، إنها ظاهرة ليست بأقل من صدام الحضارات. إنها ردة فعل تاريخية (ولو أنها غير منطقية بتعبير لويس)، «يقوم بها منافس قديم ضد تراثنا اليهودى ـ المسيحى، وضد الوضع الحالى لعلمانيتنا وتوسعنا العالمى»[١٩]. و فيما يتعلق بالتهديد الذى يمثله

الإسلام للغرب نجد «برنارد لويس» يطرح فترة تاريخية محددة فيقول: «بعد استقرار المور [أى المسلمين] فى إسپانيا وحتى قيام العثمانيين بهجومهم الثانى على ڤيينا، وأوروپا تتعرض دائمًا للتهديد من قبل الإسلام»[٢٠].

٤ ـ أما هنتنجتون فقد تحدث بصراحة أكثر عن الإسلام بوصفه تهديدًا للغرب، حيث قال: «إن الإسلام هو الحضارة الوحيدة التى تهدد بقاء الغرب، وقد استطاع مرتين على الأقل أن ينجح فى تنفيذ هذا التهديد»[٢١].

هذا التهديد وهذه المواجهة يُعدّان من وجهة نظر «برنارد لويس» وضعًا لايمكن تجنبه أو تلافيه بأى حال من الأحوال. والدليل على ذلك من وجهة نظره أن المواجهة بين الإسلام والمسيحية أو مواجهة الحضارة الإسلامية (أو حضارة المسلمين) للحضارة الغربية ليست بالأمر السطحى أو الطارئ، وليست شيئا يحدث مصادفة. إنها شىء ينبع من هوية الإسلام ومن الأسس التى بنى عليها الإسلام. ومن هنا لا يمكن أبدًا حسبان مثل هذه المواجهة ناتجة عن انتشار المسيحية وتوسعها وزيادة أعداد المسيحيين فى القرن الثانى عشر الميلادى أو نابعة من الأصولية الإسلامية فى القرن العشرين. هذه المواجهة هى فى الواقع نتيجة حتمية لاختلاف الرؤية وتفاوتها بين المسلمين والغرب المسيحى. والكلمة المفتاح فى هذا التفاوت والاختلاف فى الرؤية بين الطرفين. يوضحها هنتنجتون فى العبارة التالية:

«إن المسلمين يرون الإسلام أسلوبًا لحياة راقية سامية، يقوم بمثابة عامل للتوحيد بين السياسة والدين. بينما نجد المسيحيين الغربيين لا توجد لديهم مثل هذه الرؤية فيما يتعلق بالمسيحية، فهم يفصلون بين ما هو لله وبين ما هو لقيصر».

وأخيرًا نجد هنتنجتون قد اعترف بمسألة مهمة للغاية فى العبارة التالية: «طالما بقى الإسلام إسلامًا، أى طالما لم يخرج عن هويته، ولم يتم تفريغه من محتواه، وطالما ظل الغرب غربًا ـ وهناك شك فى بقاء هوية الغرب واستمرارها ـ فإن هذا الصراع الأساسى والبنيوى بين الحضارتين الكبيرتين هو الذى سوف يحدد العلاقة بينهما فى المستقبل، وهذا هو الشىء نفسه الذى حدث طوال الأربعة عشر قرنًا الماضية»[٢٢].

٥ ـ أما «أوريانا فالاتشى» فهى فيما يتعلق بتهديد الإسلام للغرب، وكيفية دفاع الغرب والمسيحية فى مواجهته، تتحدث بقلق بالغ وبأحاسيس شديدة الاضطراب، إلى درجة يصعب معها تحليل آرائها وكتاباتها. فحادثة سقوط برجى التجارة العالمية قد سيطرت كالكابوس على ذهن «فالاتشى» وحياتها، فهى تعيش فى حالة خوف دائم، ورعب مستمر إذ ربما يقتحم عليها الإسلام بيتها ويدخل عليها من نافذة شقتها فى منهاتن، ويقطع عليها خلوتها! وكأنه لم يبق شىء لدى علماء الإسلام إلا الدعوة للاستيلاء على الكنائس، ولم تعد هناك مهمة أمام رجاله سوى إجبار نساء الغرب على ارتداء الحجاب. وربما تساءل القارئ متعجبًا: لماذا تحكم مثل هذه السيدة بمثل هذه الأحكام على الإسلام والمسلمين؟ من الأفضل أن أنقل هنا بعض الفقرات مما كتبته هذه السيدة فى كتابها: «الغضب والغرور»:

«استيقظوا أيها الناس! أفيقوا!.. إنكم تجهلون أو تتجاهلون أن حربًا صليبية مضادة قد بدأت. إنكم تقفون كالعميان أو كمن ينظر إلى شىء عن قرب فلا يراه على حقيقته، أم أنكم لا تريدون أن تدركوا أن حربًا دينية آخذة فى الاندلاع. إنها الحرب التى يسمونها (المسلمون) «جهادًا»، هذه الحرب هدفها ليس فقط تسخير أرضنا، بل تسعى بالتأكيد أيضًا لاحتلال أرواحنا، تسعى للقضاء على حريتنا، إنها حرب تبيد حضارتنا وتدمرها، تبيد أسلوبنا فى الحياة والموت، أسلوبنا فى العبادة، أسلوبنا فى الطعام والشراب والملبس، أسلوبنا فى العلم والتعليم والتمتع بمباهج الحياة.. وإذا لم نحارب فسوف ينتصر علينا هذا الجهاد. نعم! سوف ينتصر، وسوف يدمر العالم الذى بنيناه.. ثقافتنا، فنوننا، علومنا، هويتنا، أخلاقنا، قيمنا، أفراحنا..

سيدى! أنت شاهد على أن هؤلاء أتباع أسامة بن لادن وأمثاله قد حشدوا قواهم لكى يقتلوك! لأنك تشرب الكحوليات، لأنك لا تطلق لحيتك، لأنك لا تجبر نساءك على ارتداء الحجاب أو وضع النقاب على وجوههن، لأنك تذهب إلى المسارح، تذهب إلى السينما، لأنك تهوى الموسيقى، لأنك تغنى، لأنك ترقص، لأنك تشاهد التلفاز، لأنك ترتدى الشورت وتأخذ حمام شمس على ساحل البحر أو على حافة حوض السباحة، لأنك عريان، لأنك تحب إنسانًا أو إنسانة أو تعشقها، أو لأنك لا تعتقد فى وجود الله ولا تؤمن به..»[٢٣].

فضلاً عن **خلط أوراق** الموضوعات المختلفة بعضها ببعض فى مثل هذا النوع من الدراسات والأبحاث والكتابات الغربية، فإن عدم وجود تعريف واضح ومحدد لكثير من المصطلحات المستخدمة فيها قد أضفى نوعًا من الغموض والإبهام وسوء الفهم على هذه المصطلحات، فمثل هذه المصطلحات التى تطرح وتناقش دائمًا دون مراعاة الدقة فيها، ودون دراستها ومناقشتها تحت تبويب فرعى لكل مصطلح منها، تجعلنا فى النهاية غير قادرين على أن يفهم كل طرف منّا أهداف الآخر وغاياته والأسس الفكرية التى بنى عليها دراساته وأبحاثه ومفاهيمه. وغير هذين البعدين اللذين يعدان على درجة كبيرة من الأهمية هناك أيضا معرفة روح «الآخر» وماهيته.

ولست أقصد بـ «الروح» هنا نظرية المعرفة عند هيجل، لكن ما أقصده هو المعرفة المؤسسة على فهم صحيح، ودقيق للآخر. وربما يحضرنى هنا بيت من أشعار محمد إقبال الأوردية(*) فإقبال فى حوار له مع شخص «غربى» يقول:

«تكفينى فحسب قوة حيدر(**)، أما حدة ذكائك وتألقه، واستنتاجاتك، فهى من أفلاطون»(٢٤).

وللوهلة الأولى يمكن أن يتبادر إلى الذهن تحليل سطحى وبسيط لهذا البيت، فقد يبدو من ظاهره أن «إقبال» وضع «القوة» فى مقابل الفكر، وأن هذا التقابل هو أساس المواجهة والعداوة تجاه الغرب. ولكننا عندما نتعرف على لغة إقبال ومفرداته ومصطلحاته وأسلوبه، ندرك حقيقة هدفه ومقصده وغايته من استخدامه لكلمة «قوة»؛ فهو لم يستخدمها هنا بمعناها السطحى البسيط الذى يتبادر إلى الذهن من أول وهلة، فإقبال يقول فى ديوانه «بال جبريل» جناح جبريل:

«إنه الضمير الطاهر والنظرة السامية وسُكْر الشَّوق، لا مال قارون وغناه ولا فكر أفلاطون»(٢٥)». فإقبال يرى فى الواقع فكر أفلاطون وفلسفته مثالاً صارخًا لفكر ذى أفق محدود، فكر تفكيكى، فكر عاجز عن معرفة جوهر الروح وحقيقتها. وكذلك نجد المستشرقين لديهم الصعوبة نفسها والعجز نفسه فى الوصول إلى فهم صحيح ودقيق وسليم لمصطلح «الجهاد».

(*) محمد إقبال، المفكر والشاعر الإسلامى المعروف، (١٨٧٧ ـ ١٩٣٨).

(**) حيدر، لقب أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرّم الله وجهه.

هذه الصعوبة فى فهم «الآخر» من البديهى أن تتخطى الفهم الدقيق للمصطلح أو الكلمة التى يستخدمها «الآخر» أو حتى للغة التى يستخدمها. فالمقصود هنا هو فهم ثقافة «الآخر» بجميع أبعادها، مثلما حدث أن التبس الأمر على الكونت جوبينو فى مذكراته التى كتبها عن رحلته إلى إيران، حيث كتب يقول: «إن الإيرانيين عندما يلتقى أحدهم الآخر يسأله عن أحوال أنفه!». فقد التبس عليه الأمر، وتصور أن مصطلح «دماغت چاقه» ومعناه الحرفى كيف حال أنفك ـ الذى كان مستخدمًا فى المجاملات بين الأجيال السابقة وبخاصة العشائر والقبائل الإيرانية ـ ما هو فى الحقيقة إلا سؤال عن أحوال الأنف وحجمها! هذا الفهم الخاطئ يخفى وراءه دائما سمات ثقافية وتاريخية: فهو يماثل النظرة الاستحقارية نفسها من أعلى إلى أسفل: يشبه التقليل من شأن الآخر، واعتبار الآخرين مجرد «بقايا». إنه التحليل نفسه الذى وصل فيه هنتنجتون أيضًا بعد طول بحث ودراسة إلى مقولته: الغرب والباقى (West and the Rest).

وقبل «هنتنجتون» وجدنا روديارد كيپلينج «Rudyard Kipling» فى كتابه «شعرنا وهم» يصف نفسه وبنى جلدته بالطيبة والجمال والجاذبية والقبول، أما هم أو «الباقى» أو الآخرون أو أى شخص آخر من غير بنى جلدته، فيصفهم بأنهم «مصاصو دماء متعطشون لتجرعه!»[٢٦]. مثل هذه النظرة تؤدى فى النهاية إلى تصور الآخر على صورة غير حقيقية وغير واقعية على الإطلاق. ومن الطبيعى أن يكون العداء الذى بنى على أساس مثل هذا التصور، ناشئ فى الغالب عن جهل. الحكمة نفسها التى قالها على بن أبى طالب رضي الله عنه: «الناس أعداء ما جهلوا». فالعداء الذى يتجذر أساسًا من الجهل ويتأسس عليه، حتى وإن كان مقرونًا بحسن النية لا يعدو كونه نهجًا وسلوكا يتشابه تمامًا مع سلوك «دون كيشوت» الذى ذهب لمحاربة طواحين الهواء. فهو عندما شاهد طواحين الهواء منتشرة فى الوادى بأعداد ما بين الثلاثين والأربعين، قال لتابعه:

«إننا لمحظوظون بما هو أكثر مما كنا نأمل، فالحظ يلقى فى طريقنا بما علينا أن نفعله. انظر سانكو! فهاهم أولاء ثلاثون شيطانًا قد وقفوا فى مواجهتنا، وإنى لأرى أن نحاربهم جميعًا مهما كان عددهم، فلنرسلهم جميعًا إلى الجحيم، وسرعان ما سوف نغتنى من الغنائم التى سننتزعها منهم؛ فهذه الحرب هى حرب فى سبيل الحق، وتطهير العالم من الوجود الدنس لهذه العناصر القذرة، سوف يحتسب عند الخالق عبادة

عظيمة!». ومهما أصر سانكو بونزه على أن يفهمه أنها ليست إلا طواحين هواء، كان دون كيشوت لا يقبل منه قولاً ويمضى فى طريقه لمحاربة طواحين الهواء[٢٧].

إن هجوم طائرات الركاب على برجى التجارة فى أمريكا ليس إلا عمليات شبيهة بالدون كيشوتية ـ على الأقل بمعيار عالمنا المعاصر ـ فهل هى شىء آخر غير هذا؟ نعم، تم تدمير مبنيين تجاريين، واليوم لدينا دولتان إسلاميتان وقعتا مباشرة تحت احتلال القوات الأمريكية. إن مشكلة« دون كيشوت» لم تكن فى نيته الحسنة ورغبته الخيرة، إنما كانت فى نظرته ورؤيته وتصوره. واختيار رواية «دون كيشوت» لتكون كتاب الألفية له ما يسوّغه بالقطع، لأنه من الممكن أن نسمى عالمنا المعاصر هذا بعالم «دون كيشوت» الجديد الذى صوره «سرڤانتس» من قبل فى هذه الرواية[٢٨]. إنه عالم هؤلاء الذين ليس لهم ما كان لدى «دون كيشوت» من حميمية وبساطة وروحانية، فالمغامرات التى يقوم بها هؤلاء جعلت الشعوب والأمم الكبرى تتعرض لآلام شديدة ومصائب مزمنة. مصيبة شعب أفغانستان، مصيبة شعب العراق، مصائب الأسر والعائلات الأمريكية التى تنتظر كل يوم أن تتلقى خبرًا أو أثرًا أو جثمانًا لأحد أبنائها. هذا هو سجل هؤلاء الذين تتمثل مشكلتهم الأصلية فى نظرتهم المنحرفة ورؤيتهم الناقصة وادعائهم القيام برسالة إلهية يدعونها لأنفسهم مثلما ادعاها «دون كيشوت» لنفسه، تمامًا مثل الشاه الذى قالت عنه «فالاتشى»:

«إن صاحب الجلالة الشاه له آراء تثير العجب، فهو يدعى أن روح داريوش العظيم قد حلت فيه، وأن الله قد أرسله إلى هذه الدنيا كى يبعث من جديد إمبراطورية كورش المفقودة»[٢٩].

و«پول أردمن» فى روايته السياسية الخيالية الجذابة «سقوط ٧٩» يصفه ـ أى الشاه ـ بأنه شخص يبحث له عن مكان فى التاريخ، يحلم بإشعال حرب عالمية ثالثة والانتصار فيها».

لكى نمنع أنفسنا من الوقوع فى شرك الغموض والحيرة، فنحن مضطرون لأن نعرِّف ثلاثة مصطلحات: الحضارة والثقافة والدين، وأن نوضح العلاقة بين هذه المصطلحات الثلاثة وتفاعل بعضها مع بعض. هذا التعريف والتوضيح يُعَدُّ ضروريًا أيضًا من جهة

أن «برنارد لويس» على سبيل المثال وكذلك «هنتنجتون» وأيضًا «أوريانا فالاتشى» قد استخدموا هذه المصطلحات الثلاثة كلاً منها فى مكان الآخر، أو خلطوا على الأقل فيما بينها، مثلما يمكن أن نتصور نحن أيضًا الحضارة الغربية والثقافة الغربية والدين المسيحى أحيانًا مختلطة ومتداخلة بعضها مع بعض. فعندما أرى نفسى ومن هم على شاكلتى أو بنى جلدتى ـ بتعبير كيپلينج ـ طيبًا وجميلاً وجذابا وعلى حق، بينما الآخر أراه سيئًا وقبيحًا ومهمشًا لا كيان له ولا اعتبار، فيمكن لهذه النظرة المنحرفة أن تسلب منا القدرة على الحكم الصحيح والسليم. على الأقل علينا نحن المسلمين أن نتأسى برسول الله ﷺ، ونتعلم منه كيف نتحدث عن «الآخر» وكيف نشيع فى هذا الحديث والحوار الجو العاطفى المناسب والمؤثر الذى يهدف إلى تأليف القلوب بدلاً من تكريس العداء. وسوف أشير فيما بعد إلى نهج الرسول ﷺ وأسلوبه فى الحوار مع الآخر.

وخلاصة القول إن الغيوم السوداء والغبار الكثيف الذى يغطى الأعين، يحول دون أن تنظر هذه الأعين نظرة صحيحة وأن يكون لها حكم منصف وعادل. تمامًا مثلما يفعل الزجاج المعتم عندما يكون حاجزًا بيننا وبين ما نراه. فكما يقول جلال الدين الرومى: «لهذا السبب تبدو الدنيا أمامك معتمة». فهذه النظرة السوداء والصورة المعتمة ناشئة عن هذا الزجاج المعتم الأسود نفسه وما ينتج عنه من صورة مشوهة. «إذن يجب أن نغسل أعيننا حتى تتضح الرؤية.. يجب أن ننظر بشكل آخر». علينا أن نتخلص من الإفراط والتفريط حتى نرى الغرب على صورته الحقيقية. ألم يدْع الرسول الكريم ﷺ ربه تبارك وتعالى بأن يعينه على أن يرى الأشياء والظواهر كما هى على حقيقتها؟ «اللهم أرنى الحق حقًا وارزقنى اتباعه وأرنى الباطل باطلاً وارزقنى اجتنابه». من المؤكد أن الرسول ﷺ كان يبحث عن النظرة التى يرى بها الأشياء على حقيقتها ويعرف بها الظواهر كما هى وليس كما تبدو فى الظاهر. تمامًا مثل آدم عليه السلام الذى علمه الله تعالى «الأسماء»: علم معرفة الأسماء وهويتها وكنهها ـ أى جوهر المعرفة ـ. وما أقصده هنا أقل من هذا بكثير، فأنا أقصد أن تكون لنا نظرة نستطيع أن ندرك بها حقائق الأشياء والظواهر.

فى مقدمة جديرة بالقراءة كتبها «جيانو دومينيكو بيكو» المساعد الخاص للأمين العام لمنظمة الأمم ـ حول موضوع حوار الحضارات لكتاب «تجاوز الفروق والفواصل ـ

(Crossing the Divide))، كتب يشير إلى ذكرى مثيرة للعبرة، حيث ذكر أنه فى سنة ١٩٩١م تجولوا به فى شوارع بيروت وهو معصوب العين لكى يجرى مفاوضات مع رجال وضعوا النقاب على وجوههم حول إطلاق سراح الرهائن[٣٠]. إن التحاور والتفاوض بعيون معصوبة مع رجال منقبين حول أشخاص من المؤكد أنهم احْتُفظَ بهم فى كهوف مجهولة وهم معصوبو الأعين، ليشبه تمامًا حوارًا يجريه أبكم معَصوب العين مع جماعة من الصم. ومن الواضح تمامًا ما سوف يكون عليه مثل هذا الحوار من صعوبة، وما سوف ينتهى إليه من فشل، ويستحيل الوصول فيه إلى نتيجة واضحة ومؤكدة!

فالرؤية «المشوَّهة» والنظرة المنحرفة عندما تتأسس على مصالح سياسية، فإن أى مراقب أو باحث مثل «برنارد لويس» سوف يَعُدُّ «التراث اليهودى ـ المسيحى» ظاهرة مترابطة، وسوف يرى فى الحضارة الغربية نتاجًا لهذا الترابط، ويرى بعد ذلك الإسلام ويظهره على أنه يقف فى مواجهتها. فهل يمكن حقًا الحديث عن تراث «يهودى ـ مسيحى» مشترك؟ وإذا كان هذا التراث مشتركًا، فلماذا قام الصليبيون عند هجومهم على بيت المقدس: بذبح اليهود بسيوفهم الصليبية؟ وإذا لم يكن «برنارد لويس» نفسه يهوديًا، فهل كان سيصدر مثل هذا الحكم؟ وهل كان سيستخدم مثل هذا التعبير؟

إن هذا كله ليقوم دليلاً على ما يمكن أن يؤدى إليه الكلام بمقتضى الحال كما يقول «بوبر» أو الكلام بوفق المقام بتعبير الشبسترى(*)، من وقوع مشكلات معقدة وصعاب جمة فى فهم الأمور.

ـ عندما يكون الكلام وفقًا للمقام، تقع المشكلات والصعاب فى أفهام الخلائق.

***

(*) الشيخ محمود الشبسترى، الصوفى والشاعر الفارسى المعروف المتوفى سنة ٧٢٠هـ.

الهوامش:

1- Oriana Fallaci, The Rage and The Pride, Rizzoli, New York, 2002.

2- Ibid., P: 58.

3- Bernard Lewis, The Crisis of Islam, Wesdenfeld Nicolson, London 2003.

4- Fallaci, The Rage and the Pride, P: 161, 162.

5- Ibid., P: 11.

6- Ibid., P: 150.

7- Ibid., P: 92, 93.

8- Ibid., P: 146.

9- The Crisise of Islam, P: 23.

10- Ibid., P: 38.

كان أحد المفكرين المسلمين المتحمسين قد أوصانى عن طريق صديق مقرب بأن أقوم بكتابة نقد وتحليل حول كتاب «برنارد لويس» الجديد. ولحسن المصادفة وصلتنى هذه الوصية بينما كنت مشغول الذهن بالفعل بهذا الموضوع نفسه. كما أنه خلال اللقاء الذى قمت به مع الأخضر الإبراهيمى مبعوث الأمين العام لمنظمة الأمم المتحدة السيد كوفى عنان، وبرغم الموضوعات المختلفة التى أعددتها فى ذهنى لتكون موضوعًا للحوار معه، فإن هذا اللقاء كان موضوع الحوار فيه حول الإسلام والغرب وقضايا العالم الإسلامى المعاصر، حيث قال لى الأخضر الإبراهيمى: «عندى سؤالان بسيطان؛ أولهما: لماذا حدث هذا؟ وثانيهما: ماذا يجب علينا أن نفعل؟» خلال هذا الحوار أشار الأخضر الإبراهيمى إلى هذا الكتاب الأخير الذى ألفه «برنارد لويس»، وبيانات هذا الكتاب كما يلى:

Bernard Lewis, What Went Wrong?

(Western impact and Middle Eastern response)

(Phonix London 2003)

11- Ibid., P: 105-106.

١٢ ـ جان فوران، مقاومت شكننده تاريخ تحولات اجتماعى إيران، ترجمة أحمد تدين، تهران، مؤسسه خدمات فرهتكى رسا، ١٣٧٨هـ . ش، ص ٢٤١ . (الترجمة الفارسية).

13- The Rage and the Pride, P: 64.

14- Hassan Hanafi, Islam in the Modern World, vol: 2. Dar Kebaa Bookshop. P: 395.

15- Samuel P. Huntington, The Clash Civilizations and Remaking of World Order, New York, Simon & Schuster, 1996, P: 31.

16- Edward W. Said, Orientalism, New York, Pantheon Books, 1978, P: 43, 44.

١٧ ـ شيرين هانتر، آينده إسلام وغرب، ترجمة همايون مجد، تهران، فروزان روز، مركز كَفتكَوى تمدنها، ١٣٨٠هـ هـ. ش، ص ١ . (الترجمة الفارسية).

ورواية باكن هذه أعيد طبعها أخيراً فى بريطانيا:

John, Buchan, The Greenmantle, Hertfordshire, England: wordswoth classices, 1994.

١٨ ـ أرنولد توينبى، تمدن دربوته آزمايش، ترجمة أبو طالب صارمى، تهران، أمير كبير، ١٣٥٣ق. ش، ص ١٩٩، ٢٠٠ . (الترجمة الفارسية).

19- Bernard Lewis, The Roots of the Muslim Rage, Atlantic Monthly, September, 1990, P: 90.

20- Bernard Lewis, Islam and the West, Oxford University press, 1994, P: 3.

21- The Clash of Civilzations. P: 210.

22- Ibid., P: 212.

23- The Rage and the Pride, P: 84, 85.

٢٤ ـ إقبال، كليات أوردو، لاهور، شيخ نياز أحمد، ١٩٨٤، ص ٥٨٥ . (الديوان بالأوردية).

٢٥ ـ نفسه، ص ٣١٩، ٣٢٠، وأيضًا ص ٣٧٠.

26- The Works of Rudyard Kipling, The Words Worth poetry library, 1994, P: 763-764.

٢٧ ـ سرڤانتس، دون كيشوت، ترجمة محمد قاضى، تهران، انتشارات نيل، ١٣٥٥هـ ش، ج١، ص ٢٧، ٦٨ . (الترجمة الفارسية).

28- Anthony J. Cascardi, Cervantes, U.K. Cambridge University Press, "Diana de Arms Wilson, Cervantes and the new world" P: 207-208.

٢٩ ـ أوريانا فالاتشى، گفتگوها، گرد آورى وترجمة غلام رضا إمامى، تهران، انتشارات برك، ١٣٧٦هـ. ش (الترجمة الفارسية).

30- Crossing The Divide, USA, Seton Hall University, 2001, P: 13.

وهذا الكتاب قام بتأليفه مجموعة من الشخصيات البارزة فى المجالات العلمية والثقافية والسياسية والدينية، اختارتها لجنة من معاونى الأمين العام لمنظة الأمم المتحدة. والجملة الافتتاحية فى هذا الكتاب تفيض بالدقة والبلاغة والواقعية: «التاريخ لم ينته، والحضارات لم تتصارع بعضها مع بعض». وهذه الجملة تمثل فى الواقع مقدمة لنقد كتابى فوكوياما وهنتنجتون ونظريتيهما فى صراع الحضارات.

***

obeikandl.com